

غريب فى وطنه

سافر أبو القاسم الشابي فى الحادية عشرة من عمره تقريباً من بلدته (الشابية) إحدى ضواحي مدينة (توزر) بجنوب تونس ، إلى مدينة تونس العاصمة ليتلقى العلم بجامع الزيتونة وهو أكبر معهد علمى بتونس فى ذلك الحين ، وكان أشبه بالأزهر فى مصر .

وخلال السنوات التالية تقدمت سنه وزاد نضجه وبدأ يعى الحياة من حوله ، وفى مرحلة النضج عندما اقترب من سن العشرين أحس بالصراع الفكرى الدائر بين المحافظين الجامدين وبين المجددين المتحررين ، بين أنصار الإبقاء على العقل العربى أسيراً للقيود القديمة والذين يريدون تحريره وفتح الآفاق العصرية أمامه .. وأخذ الشاعر جانب المجددين المتحررين ، فقد كان شاباً موهوباً يحس بالحياة الجديدة إحساساً قوياً عنيقاً ويدرك أن القوالب الجامدة تضيق عن التعبير الصحيح عن إحساسه الجديد . وامتزج الشاعر والناثر فى شخصية أبى القاسم وخرجت إلى الحياة تلك الشخصية الجديدة التى تمثل قوة فكرية وفنية كبيرة .

وكانت قوى المجددين تتجمع فى جمعية (قدماء الصادقية) وانضم أبو القاسم إلى هذه الجمعية ، وفى الجمعية ألقى محاضراته الشهيرة عن (الخيال الشعرى عند العرب) ، وكانت طبيعة الأمور تقتضى أن ينضم هذا الشاعر الموهوب ذو المزاج الأخلاقى الذى يقدر فكرة الواجب ، ويدرك مسؤوليته

العميقة نحو الآخرين .. كان لابد لشاعر هذه طبيعته وهذا مزاجه أن ينضم إلى أى جماعة ثائرة تهدف إلى تغيير ظروف المجتمع وعقليته ... ولو كان أبو القاسم الشابي مجرد شاعر رومانتيكى محبوس فى أحزانه الخاصة ، وتأملاته الذاتية لا تبعد عن الحياة ، ولم يشارك فى التيار الثورى الموجود ، ولكنه كان شاعراً حزيناً تمتد جذور أحزانه إلى واقع المجتمع ، هذا الواقع الذى يثير الحزن فى النفس الحساسة ويبعث بالكآبة إلى الشعور المرهف ... ولم يكن أبو القاسم من ذوى الأمزجة السوداوية التى تميل إلى التشاؤم لمجرد التشاؤم ، بل على العكس كان من الأمزجة المحبة للحياة ، المؤمنة بقيمتها وقديسيتها ، والتى تدرك الجمال الموجود فى الطبيعة وتفهمه وتتذوقه ، ولكن الشابي كان يجد كل المعانى الجميلة فى الحياة ضائعة مبددة أمام القوى القبيحة المتخلفة ، ومن هنا كان فناً ثائراً وكان فناً حزيناً معاً.

والشابي لم يعبر عن نفسه بالشعر فقط بل كتب كتابات نثرية قليلة ولكنها شديدة الأهمية فى الدلالة على شخصيته وأفكاره . ومن خلال هذه الكتابات النثرية نجد أنه كان يبحث عن (فكرة شاملة) حول الفن والحياة ، فكرة تكون نقطة ارتكاز ، وتستطيع أن تقدم تفسيراً لكل شىء فى الفن والحياة معاً ، وبذلك يكون الشابي من أبرز الشعراء العرب فى القرن العشرين الذين يشغلهم البحث عن فكرة شاملة ، هذا البحث الذى هو دائماً من شأن الشعراء الكبار الذين لا يقنعون بأن يكون شعرهم مجرد انطباعات متفرقة عن مواقف الحياة المختلفة ، بل هم يبحثون عن خيط يربط تلك المواقف بفلسفة واحدة ، ووجهة نظر أساسية فى الحياة .

ولقد استطاع الشابي أن يصل إلى هذه الفكرة الشاملة التى أقينته وآمن بها وسماها (يقظة الإحساس) وأصبحت (يقظة الإحساس) فى نظره هى سر التقدم الحضارى والتقدم الفنى .

يقول الشاب :

(تسمع إلى هذا الشاعر فإذا أنت أمام روح إلهي نبيل يسمو بنفسك إلى آفاق الحق والفن والجمال ويجعل منك كتلة من شعور قدسى مشوب ، وتسمع إلى آخر فترى أنك تسمع إلى حديث ساذج بسيط لا يميزه عن أحاديث الناس العادية إلا رنة النغم وتواتر القوافي وجمال التعبير) .

(وهذا شعب من شعوب الأرض يجدد ويكده وينتج ويخصب أينع الشمار وأحلاها فإذا له حياته الأدبية الناضجة وحياته الفنية السامية ، وحياته العلمية الراقية ، وحياته العادية المهذبة ، ومشاعره الطامحة إلى ما هو أجل من ذلك وأسمى ، إلى المثل الأعلى المحجب في ظلام الجهول. وهذا شعب آخر منصرف إلى التبطل والفراغ ، مخلص إلى الكسل والخمول ، لا يعمل ولا ينتج ولا يجود على الإنسانية بخير ، ليس له فن ولا علم ولا أدب ولا طموح ، بل ولا حياة أيضاً ، إلا كما تحيا ماشية الحقل وآبدة الجبل ..) .

(وعندى أن السبب الحقيقي لهذا التفاوت هو (يقظة الإحساس) فإذا تيقظ الإحساس في قلب الشاعر والفنان - بتعبير أشمل - كان له - بالرغم عنه - استقلاله الذاتى الذى يشعره بأنه قوة حية منتجة ، من المستحيل أن تندمج في سواها ، وأن لا تشق لنفسها سبيلا بكرا للمجد والحياة ، وكانت له كرامة ترفع عن أن تذوب في غيرها أو أن تنحط إلى درك التقليد ، وبذلك تصبح نفسه شعلة حية نامية تتوهج في قلب الحياة . وإذا تيقظ الإحساس في روح الشعب تحركت في صدره - برغم كل شيء - تلك الأشواق الطامحة والرغبات الجارحة التى كانت مكبلة نائمة في ليل الدهور ، وإذا ذلك يشعر بنفسه - وإذا قلنا (يشعر بنفسه) فقد قلنا كل شيء - ويعلم أنه عضو حى في هاته الجامعة البشرية ، عليه واجب السعى والعمل في سبيل كمال الإنسانية المنشود ، في سبيل مثل الحياة العليا ، في سبيل الحق والقوة والجمال .

هذا هو تفسير الشابي لفكرته عن (يقظة الإحساس) عند الفنان وعند الشعب ، وقد حاول الشابي أن يزيد توضيح هذه الفكرة في رسالة إلى أحد أصدقائه نشرها الأستاذ أبو القاسم محمد كرو في كتابه عن (آثار الشابي) ... في هذه الرسالة يقول الشابي :

(إن سبب جمود الفن العربي وأتباعه تلك الطريقة الهندسية المتشابهة التي لا تمت إلى الحياة والعمق والخيال بسبب قريب أو بعيد هي : روح الأمة العربية (القديمة) ، فهي روح مادية ساذجة ، وإنك لتنظر إلى آثارها الفنية من أدب ونقش وتصوير وميثولوجيا فلا تجد لها حظاً من نفاذ الإحساس وعمق الخيال وروحانية المشاعر . حتى أن المذاهب الفلسفية التي تغلب عليها التزعة الروحانية لم تعرف سبيلاً إلى نفوس العرب ، فمذهب وحدة الوجود الذي هو أعمق نظريات المتصوفة لم يشتهر به من متصوفة الأمة العربية إلا من كانوا أغراباً عن العرب كالسهروردي والحلاج والشمس التبريزي وجمال الدين الرومي . ولعل من الأسباب أنهم لم ينقلوا عن الهند والرومان شيئاً مما يتصل بالجانب الروحي والناحية الفنية ، فهم قد اطلعوا على أدب فارس واطلعوا على عقيدتها ، وفارس هي أقرب الشعوب الآرية شبها بالعرب من ناحية الحس والخيال ، وهم قد اطلعوا على بعض آداب الهند ولكنهم لم يدرسوا عقيدة الهند درساً عميقاً يستطيع أن يؤثر في تاريخهم الفني أثره البعيد ، لأن ما فيها من عمق فني ونفاذ في الفكر وسكرة في الإحساس قد كان منافياً لطبيعتهم (القنوعة) الساذجة فحال بينهم وبينها ، كما أنهم لم يدرسوا تاريخ الفن بأوسع معانية لا عند الرومان ولا عند اليونان إلا قليلاً من أساطيرهم لا تكفى لشرح نظرهم الفنية إلى هذا العالم ، ولعلهم لم ينقلوها إلا ساخرين بوثنيتهم المسكينة وبذلك وقفت آداب العرب وفنوتهم في منطقة ضيقة لا عمق فيها ولا قوة إحساس بالحياة ولا مجاوبة للكون بالفهم والحس والخيال).

هذه هي وجهة نظر الشاب في الأدب العربي القديم ، وهي وجهة نظر متطرفة وعنيفة إلى حد الخطأ ولكنها وجهة نظر صحيحة في جانب من الجوانب ، فالقلق والشك والتجارب الروحية العنيفة الحادة التي امتلأت الآداب العالمية القديمة — وخاصة الأدب اليوناني — بالتعبير عنها .. كل هذا النوع من الموضوعات والقضايا والآفاق الإنسانية مفقود في الأدب العربي إلا في استثناءات قليلة ، مثل التأملات المبعثرة للشاعر الجاهلي طرفة بن العبد ، والتأملات الفلسفية العالية في قصائد المتنبي الرائعة ، ولعل النموذج المتفرد في هذا الميدان هو شعر أبي العلاء المعري الذي امتلأ بالفكر الفلسفي والتأمل العميق في المصير الإنساني والتعبير عن القلق والشك الروحي الكبير .

وسر هذه الظاهرة في الأدب العربي القديم ظاهرة نقص التعبير عن القلق الكبير هو أن الحياة العربية كانت حياة عملية بسيطة محدودة غير معقدة لا تكاد تتيح فرصة للتجارب الروحية الكبرى التي تعرض لها شعب مثل الشعب اليوناني القديم ، ذلك الشعب الذي انشغل انشغالا فلسفيا وأديبا واسعا بمصير الإنسان في هذا الكون ، فظهر فيه فلاسفة في مثل قامة سقراط وأفلاطون وأرسطو وأبيقور ، كما ظهر فيه أدباء في مثل قامة أسخيلوس ويوريديس . ولقد كان الشعب اليوناني القديم شعبا وثنيا مثل الشعب العربي في الجاهلية ولكن الوثنية اليونانية امتزجت امتزاجا عميقا بالفن والجمال والفلسفة والأساطير ، أما الوثنية العربية فكانت وثنية فقيرة محدودة القيمة ضيقة الأفق لا تكاد تربطها صلة بالفن والجمال والفلسفة والأساطير اللهم إلا في حدود شديدة الضيق .

ثم جاءت التجربة الروحية والحضارية الكبرى في حياة العرب وهي ظهور الإسلام . ولكن حضارة العرب بعد الإسلام قامت على اليقين الديني الصارم وعلى تحديد مكان لكل شيء في هذا الوجود وفي صورة ثابتة

لا تحتل الشك ولا تقبله .. فالله في مكانه والإنسان في مكانه والكون في مكانه ولا تبديل لشيء ولا مجال للجموح الفكري أو الوجداني بالنسبة لهذه القضايا على الإطلاق .

هذه بعض الأسباب التي حددت انطلاق الأدب العربي القديم وكان لها من الآثار ما سجله أبو القاسم الشابي في رسالته التي أشرنا إليها والتي كتبها إلى أحد أصدقائه وعبر فيها عن ملاحظاته الحادة القاسية عن الأدب العربي القديم . ولا شك طبعاً أن نظرة الشابي تتجاهل كثيراً من القيم الأصيلة في الأدب العربي القديم ، ولكن الشابي له عذره لأنه يحمل نظرة جديدة إلى الفن والحياة لم يجد لها صدى في الأدب العربي القديم فثار وتمرد ليفتح الباب لنفسه ولغيره حتى يقدموا ذلك الأدب الجديد الذي يريده الشابي ويؤمن به .

ونعود إلى فكرة (يقظة الإحساس) عند الشابي ... إن يقظة الإحساس عند هذا الشاعر الثائر هي التفتح على المعاني الواسعة العميقة في الحياة الإنسانية والتطلع إلى معرفة الطبيعة معرفة عميقة ، وإلى معرفة أسرار التجربة البشرية في هذا العالم معرفة واسعة أيضاً ، والتجربة البشرية تشمل التصوف والأساطير التي حاول الإنسان في بعض العصور أن يعرف من خلالها حقيقة الوجود .

وهكذا يتطلع الشابي إلى مستويات جديدة في الفن ، ويريد للإحساس العربي الجديد أن يكون على غاية من التيقظ لما يدور في الكون ، وألا يغفل أبداً عن أسرار الحياة وهمسات قلبها ، وكل ما يدور فيها حتى ولو كان في الظل ، بعيداً عن الأضواء .

ويحاول الشابي أن يدفع بنظريته إلى أقصى درجاتها في محاضراته عن (الخيال الشعري عند العرب) والتي طبعت في كتاب مستقل بعد أن ألقاها الشاعر في (جمعية قدماء الصادقية) ، ولقد كانت هذه المحاضرة سبباً في ثورة المحافظين عليه ، واتهامه بالزندقة الأدبية والزندقة الدينية لأنه هاجم الإيمان المطلق بالأدب

العربي القديم ، بل هاجم الأدب القديم هجوم من يريد تحديد الروح العربية ،
وتوسيع الآفاق أمام النفس العربية .

في هذه المحاضرة يقول الشابي :

(إن الأدب العربي غني بالخيال الصناعي أو الخيال المجازي وهو خيال
المجاز والاستعارة والتشبيه وغير هاته من بركات الألفاظ والتعابير التي أشبعها
البلاغة على اختلافها بحثاً ودرساً .

ولكن هذا النوع من الخيال المؤلف إن دل على بعض نواح خاصة من
روح الأمة فهو لا يدل على مقدار شعورها بتيار الحياة كعضو حي في هذا
الوجود ، ولكن هناك نوعاً آخر من الخيال اتخذ الإنسان لا للتزيق والتشويق
، ولكن ليتفهم من ورائه سرائر وخفايا الوجود ، وأسميه (بالخيال الفني) لأن
فيه تتطبع النظرة الفنية التي يلقيها الإنسان على هذا العالم الكبير ، وأسميه أيضاً
(الخيال الشعري) لأنه يضرب بجذوره إلى أبعد غور في صميم الشعور ،
فالخيال الشعري بهذا المعنى العميق الذي تلتقى فيه الروح الفنية والفلسفة في
آن ، والذي نفهم منه نفسية الأمة ونذكر ما الذي لآفاقها الروحية من عمق
وسعة وضياء .. ذلك النوع من الخيال هو الذي حرم منه الأدب القديم .

بهذه الأفكار الحية العنيفة انطلق أبو القاسم الشابي يواجه العقلية الأدبية
الجامدة التي كانت شائعة في تونس ذلك الوقت ، بل كانت شائعة في الوطن
العربي كله ، رغم البدايات الجديدة العميمة التي ظهرت في الأدب العربي ،
مثل حركة الشعر المهجري ، وظهور جماعة (أبوللو) في مصر ، وظهور حركة
العقاد وشكري والمازني من قبل . إلا أن الشابي كان أبرز شاعر عربي حتى
قيام الحرب العالمية نأدى - نظرياً - بضرورة التجديد وأمن في نفس الوقت
بدعوته وتحمس لها وطبقها في شعره بأمانة ، فنحن نجد أن العقاد مثلاً نادى
بالتجديد الشعري وبتحرير القصيدة العربية من القيود القديمة ومن بينها ربط

القصيدة بالمناسبات المختلفة مثل المدح والهجاء والثناء والتهنئة ومع ذلك نجد أن دواوينه مليئة بقصائد كثيرة من هذا اللون رغم أن هذه الدواوين تحمل - للإنصاف - نماذج شعرية كثيرة تعبر عن وجهة نظر العقاد في الشعر ، أما الشعراء المجددون اللامعون في جيل الشابي من أمثال علي طه محمود وإبراهيم ناجي فلم يكن لهم دعوة نظرية يدعون إليها أو يكتبون بناء عليها ، بل كانوا يقدمون شعرهم دون أن يربطوا بينه وبين أى دعوة نظرية ينادون بها ويدافعون عنها . أما الشابي فقد كانت له دعوته النظرية التي ينادى بها ويدعو إلى ثورة شعرية تقوم على أساسها ، وهو في نفس الوقت يطبق دعوته بصدق وإخلاص وتوافق تام مع دعوته نحس به في قصائده المختلفة ، وعندما نتصفح ديوان الشابي لا نعثر فيه على قصيدة مدح أو هجاء أو ما يشبه هذه الموضوعات التي ورثناها عن الأدب العربي القديم ، ويرجع ذلك إلى أن نظرة الشابي للشعر كانت نظرة رفيعة ، كان يقدر الشعر ويقدر وظيفته في الحياة الإنسانية ويفرض أن يكون الشعر أداة للأغراض والموضوعات المؤقتة العاجلة، ولو أخذنا شعراء جيله البارزين مثل ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل لوجدناهم جميعاً يكتبون في هذه الموضوعات التي رفضها الشابي رفضاً نهائياً ، واقتصر في شعره على الموضوعات الإنسانية العميقة التي يجد فيها مجالاً لتأملاته وأفكاره ومشاعره ، وهنا يتميز الشابي على شعراء جيله ، فهو لم يكن (منقاداً) إلى التجديد بسبب أحاسيس عامة غامضة ولكنه كان يصدر في تجديده عن نظرة فكرية وإنسانية أحسها وفهمها فهماً صحيحاً صادقاً .

وإذا كان أبناء جيل الشابي ومدرسته الرومانسية من الشعراء يعودون (أحياناً) إلى الموضوعات التقليدية ، فإن شعراء الجيل القديم وأدباءه والذين كانوا يسيطرون تقريباً على الحياة الأدبية في الوطن العربي كانوا يعيشون على المفهوم القديم للشعر ويجرسونه حراسة عنيفة ، وكانت الموضوعات

القديمة من مدح وهجاء ورثاء وتهنئة هي المادة الشعرية الأساسية ، وكانت (الخطابة) هي الطابع النغمي لشعراء هذه المدرسة التقليدية المسيطرة ، وكانت هذه المدرسة بالطبع تمجد الماضي الأدبي تمجيداً مطلقاً ولا تجد فيه عيباً أو نقطة ضعف بل تجد العيب والضعف في الخروج على هذه التقاليد والثورة عليها ، ولذلك كان ظهور الشابي خطراً على هذه المدرسة وعلى أنصارها الكثيرين ، وقد لقي الشابي ما يستحقه شاعر جرىء جديد الإحساس والتفكير من عدااء وكرهية ، فهاجمه كثيرون في بلده ، وحاولوا أن يعزلوه عن جماهير القراء ويشككوا في قيمته الشعرية ، وقد نجحوا إلى حد ما في الوصول إلى بعض ما كانوا يهدفون إليه ، وكان نجاحهم هذا سبباً من أسباب اكتئاب الشاعر وحزنه وإحساسه بالغربة في وطنه ، وقد بلغ هذا الإحساس بالغربة أحياناً حدّاً عنيفاً دفع بالشاعر إلى نوع من الشعور بأنه يقف وحده .. وحده تماماً في بلاده ، فأبناء شعبه لا يسمعون نداءه إلى (يقظة الإحساس) بالحياة ، ولا هم يسمعون نداءه إلى الحيوية والتمرد والإقدام في مقاومة الظلم السائد في المجتمع.

وقد عبر الشابي عن أزمته المعنوية تعبيراً مباشراً في بعض أوراقه التي وصلتنا من مذكراته الشخصية ، يقول الشابي في جزء من مذكراته قبل وفاته بأربع سنوات تقريباً :

(أشعر أني غريب في هذا الوجود ، وأنني ما ازداد يوماً في هذا العالم إلا وأزداد غربة بين أبناء الحياة وشعوراً بمعاني هذه الغربة الأليمة ، غربة من يطوف مجاهل الأرض ويجوب أقاصي المجهول ثم يأتي ليحدث قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحداً منهم يفهم من لغة نفسه شيئاً) .

ثم يصرخ في صوت منخفض ولكنه ملئ بالألم :

(الآن أدركت أني غريب بين أبناء بلادي .. وتلك مأساة قلبي الدامية) .

وهو يعبر عن إحساسه بالغرابة أيضاً في قصيدته المشهورة (النبي المجهول)
فيقول :

أيهما الشعب ليتنى كنت حطاباً	فأهوى على الجذوع بفأسى
أنت روح غبية تكره النور	وتقضى الدهور في ليل ملس ⁽¹⁾
إنني ذاهب إلى الغاب يا شعبي	لأقضى الحياة وحدي بيأسى
ثم أنساك ما استطعت فما أنت	بأهل خمرتي ولكأسى
سوف أتلو على الطيور أناشيدى	وأفضى لها بأحزان نفسى

هذا هو حصاد معركته مع الحياة والمجتمع ... مجدد متوثب الفكر
والروح وسط عقول محافظة جامدة متعلقة بالقديم . طموح إلى الحرية
والانطلاق وسط شعب سحقته التقاليد القديمة وأفسدت روحه أنظمة الحكم
الاستعمارية . إنها غربة الإنسان الموهوب الذى سبق عصره ، وحمل في قلبه
وعقله صورة المستقبل الذى لم يكن كثيرون يستطيعون تصوره في ذلك الحين

(1) الملس : هو الظلام الشديد .